وحدة المغرب العربي

عبد العزيز بن عبد الله

مجلة دعوة الحق – العدد 12

المغرب في عرف المؤرخين العرب، هو مجموع الأقطار الإفريقية الممتدة عربي مصر بما فيها برقة وطرابلس، ولم يكن هذا التعريف بدعا من القول، لأنه يستند إلى حقائق إنسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الإطار الجغرافي، كما لها عوامل تاريخية عن وحدة الفكر والتراث.

وسنستعرض في هذا ابحث بحول الله المجالي المختلفة لهذه الوحدة التي جعل من المغرب العربي قطعة متراصة من القارة الإفريقية.

"إن جزيرة المغرب" محاطة بالبحر في أهم جهاتها (شمالا وغربا وشرقا) وتعتبر الصحراء امتدادا طبيعيا لها في الفيافي الإفريقية للمقومات الجوهرية التي يرتكز عليها المجموع.

نعم إن هذه الصحراء التي هي أعظم صحراء في العالم، كانت في الماضي أكثر عمرانا منها اليوم، كما كانت مسرحا لتطورات عميقة تجعلها من صميم المغرب العربي.

ومع ذلك فإن الإقليم الذي تسلسلت فيه الحضارة بكيفية أعمق وأبهى، هو ذلك الجزء الذي يمتد على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، الذي كان يسمى بحر العرب، والمحيط الاطلنطيكي أو بحر الظلمات في شريط هائل طوله ثلاثة آلاف ك. م. وعرضه مائة وخمسون ك. م. ولكن مجموع سكان هذا الجزء من العالم يحملون نفس الاسم، وهو أمازيغ، من طرابلس إلى قابس إلى الصويرة (سوردون-مؤسسات وأعراف البربر بالمغرب ص 27)

وقد اندهش المؤرخون الغربيون للسرعة الخارقة التي كان المغرب يسترجع بها وحدته السياسية في ظرف سنوات معدودة، بحيث تمتد المملكة بمجرد انبثاقها في مركز من المراكز إلى أقصى التخوم، مثال ذلك أن بعض أمراء نوميديا (الجزائر الحالية) مثل سيفاكس ملكوا من قرطاجنة إلى راشكون (تلمسان) كما امتد نفوذ الفاطميين من القرويين إلى فاس، وابن تاشفين من الصحراء على قلب الجزائر، وعبد المومن إلى طرابلس.

إلا أن معظم المؤرخين الغربيين يتحاشون النتائج المحتومة لهذه الظاهرة، زاعمين أن من خواص المغرب، وكذلك الشرق، انعدام نقطة مركزية أصلية تلتف حولها الأمة على نسق ما جرى مثلا في أوروبا، حيث انبثقت نواة مركزية كدولة بروسيا وجزيرة فرنسا وقشتالة وانجلترا القديمة، ثم ترعرعت تدريجيا على أن تكونت منها الدول الألمانية والفرنسية والاسبانية والانجليزية، ولعلنا في غير حاجة على التدليل على أن عناصر الوحدة التي تتوفر جوهريا في المغرب العربي، وتكاد تنعدم لحمتها بين الشعوب الأوروبية، هي القوام الحقيقي لتلك الظاهرة التي لم تتحقق قط لفاتح أجنبي غير العرب.

ويقول أولئك المؤرخون أيضا، بأن الفكر الشرقي ومنه الفكر البربري يتصور أن التاريخ الشعوب بتسلسل خارج الإطار الجغرافي، بمعنى أن الوطنية العربية أو البربرية لا ترتكز في نظره على التراب، ولا تستلزم وجود وطن له حدود وذاتيته الخاصة، وان الجهاز القبلي الذي هو نواة الدولة يفهمه العرب والبربر مجردا عن قوامه الإقليمي لأنه جهاز جنسي قبل كل شيء، وقد شعر (سوردون) في كتابه «مؤسسات وأعراف البربر في المغرب» (ص 438) بما في ذلك من التناقض، فصار يتلعثم في الدفاع عن هذه الفكرة التي روجها أول الأمر بعض المستشرقين، والتي تريد أن توفق بين تعلق البربر بوطنه وعدم وجود روابط قانونية بينه وبين هذا الوطن. ولعل هذا الوهم المستتب في أذهان الغربيين راجع إلى عدة عوامل، منها أن الإسلام في عهده الأول لم يول كبير اعتبار للوطنية الضيقة لأنه كان يهدف إلى نشر فكرة لا تحدها تخوم مصطنعة، ومنها كذلك أن جوهر القبيلة سلالي ككل قبائل العالم، ولكن الشيء الذي أغفله هؤلاء المؤرخون هو أن في المغرب قبائل اندمج جانب منها سياسيا ضمن قبائل أخرى، وأعطت بذلك الأسبقية للإطار الجغرافي، وقد يكون الوازع في هذه الحال، أما إمكانيات اقتصادية أوفر، وأما عواطف خاصة من نوع الحنين على مسقط الرأس ومرتع الصبا، وعلى كل فإن نظرية الغربيين في هذا الموضوع تنطوي على شيء غير قليل من الافتعال.

وإذا كان هنالك قبائل تنتقل من الجبل إلى السهل حسب الفصول انتجاعا للماء والكلأ، فغنها تبتعد غالبا عن مركزها الأصلي الذي تقوم فيه مستودعات وبنايات قارة بأقل من مائة كيلومتر، وقد تحدث ابن خلدون عن بعض هذه القبائل فعلل أيضا انتقالها عن مساقط رؤوسها بضيق العيش في إطارها الجغرافي الأصلي لاسيما وإنها تسكن الخيام المنقولة.

على انه يمكن أن نرى في هذه الهجرة نفسها دليلا جديدا على أن العقلية البربرية لا تفرق بين أجزاء هذه الوطن الأكبر الذي هو مجموع المغرب وانه متى أعوزت قبيلة من القبائل وسيلة العيش في ناحية انتقلت إلى أخرى ضمن الإطار الجغرافي العام بل هنالك قبائل لم تضطرها عوامل من هذا القبيل على الانتقال إلى أجزاء أخرى وكيف لا هي تشعر هنا وهناك بنفس المناخ ونفس الطبيعة ونفس الذهنية والعواطف.
على أن البحث عن الحيز الحيوي ولو بالانفصال عن المقر الأصلي غير مستعد حتى في أوروبا التي هاجر رجالها على أمريكا كونوا لأنفسهم موطنا جديدا، وفي ذلك ما يحدو الأوروبيين حسب م. كوتي على تغيير نظرهم في ضرورة القوام الترابي للوطن (العصور الغامضة للمغرب ص 93)
ومع ذلك فإن هذه الظاهرة أو تلك لم تكن حادية لنفي الإطار الجغرافي كبوتقة لانصهار مقومات الوطن لاسيما وأن بعض فلاسفة الاجتماع مثل رونان لا يتطلبون في تكوين الأمر سوي وحدة التاريخ والعواطف.
فلنستعرض الآن من خلال قبائل زناتة-مثلا- الدور الذي قامت
به العوامل السلالية في تكوين المغرب العربي.
فقد قرر ابن خلدون-واقره على ذلك مؤرخون غربيون المثال كوتبى وكويل-أن الذين خصص لهم سفرا خاصا في تاريخه منتشرون في المغرب من غدامس إلى سوس الأقصى بل يكونون معظم سكان مداشر الصحراء وأنت تجدهم اليوم في كورارة يتكلمون اللهجة الزناتية وكذلك في مزاب وورغلة وقد لاحظ ابن خلدون وجود زناتة كذلك في ناحية طرابلس ووسط سهول إفريقيا وجبال الاوراس بالجزائر، وما زال إلى الآن في جبل نفوسة الطرابلسية «برابرة لهم صلة تاريخية وثيقة بمملكة تاهرت الزناتية» ويشعرون إلى الآن بقرابتهم مع المزابيين (كوتبى ص 195) ويؤكد ابن خلدون أيضا أن معظم الزناتيين يقطنون

«المغرب الأوسط (أي الجزائر) وينصب الوادي الزناتي على اليوم شمالي الاوراس في حدود سهول قسطنطينية والتل وقد تغلغلت اللغة العربية في المواطن الزناتية واعتراف بذلك بعض المستعربين المعاصرين.

ومن زناتة كذلك بنو يفرن الذين أسسوا ممالك في أغمات وشالة وتادلة حيث ظلوا قابضين على زمام الحكم إلى عهد المرابطين في حين أقام بنو عمهم المغراويين ممالك في فاس وسجلماسة وتلمسان وحتى في طرابلس

وإذا تتبعنا مواطن زناتة وجدناهم استوطنوا في المغرب الأقصى حيث تسربوا من وجدة وفاس وممر تازة إلى سهول المحيط الأطلسي المتسمة كلها بالطابع العربي.

وهكذا نرى أن زناتة التي انتشرت في مجموع إفريقيا الشمالية تمثل إحدى الدعائم السلالية لوحدة المغرب .

ولا يخفى أن البربر أما برانس أو بتر ونصف هؤلاء البتر من ثقوسة ولواتة أي من أصل طرابلسي ولواتة بالخصوص قبيلة أصلها من برقة يقال أنها من أرومة قبطية وقد أعبت دورا هاما في بداية تاريخ المغرب العربي» كما يقول كوتي وقد غمر اللواتيون الواردون الشرق سفوح جبال الاوراس وكانوا عضوا قويا للدولة الحفصية في تونس ومن فروع البتر المطغريون الذين استوطنوا ممر تازة واحواز تلمسان، وفي عصر ابن خلدون كان غالب سكان سجلماسة عاصمة تافيلالت مطغريين وانبث المطغربون كذلك في واحات النخيل بين توات وفجيج وقد أكد كوتي أن فجيج هذه كانت في القرن الرابع عشر الميلادي هي (306) البقعة الوحيدة التي احتفظت فيها عائلة مطغرية بالسلطة السياسية

وينتسب المطغريون لبني فاتن الذين توجد لهم فروع أخرى في افريقية وباقي نواحي المغرب لاسيما أقاليم المغرب الأوسط المحاذية للصحراء وهم الذين أسسوا مملكة تاهرت وانتقلوا بعد سقوط هذه المملكة إلى جنوب القطر التونسي حيث أسسوا جزيرة جربة، ومن يسن هذه الفروع قبائل مغيلة التي تقطن المغرب الأوسط من مصب مشليفن إلى مدينة مزونة والمغرب الأقصى وبين فاس وصفرو ومكناس وكذلك مديونة في مقطعة تلمسان منها مع عبد المومن الكومي إلى المغرب وفي هذه القبيلة فخذة تسمى ندرومة وقد أكد اللغوي الخبير ويليام مارسي أن لهجة ندرومة عربية قديمة ربما دخلت في عهد الموحدي.

وتقطن في نفس المقاطعات مكناسة التي أسست كرسيف (ناحية تازة) والأخرى في سجلماسة ودائرتها

ويتجلى من هذا العرض أن البتر أو زناتة استوطنوا السهول المتسلسلة بين النجاد والوهاد من طرابلس إلى تازة واصلين بحبل وثيق أقطار المغرب العربي وصحراءه.

ذل هو بعض الدور الذي قام به البتر، فماذا كان دور إخوانهم البرانس.

إن قبائل البرانس التي اتسمت بأهمية كبرى في توجيه تاريخ المغرب العربي هي كتامة وصنهاجة ومصمودة.

فموقع كتامة الجغرافي هو الإطار الذي تركزت فيه الدولة الفاطمية والذي كان تابعا لبني اغلب أمراء افريقية، وقد اختار الفاطميون مهدية عاصمة لهم، وبعد انهزام أبي يزيد «بو حمارة» الذي كان يضعضع أركان الدولة الفاطمية الفتية رجع المنصور الفاطمي إلى القيروان حيث أسس المنصورية في أرياضها ثم كان فتح مصر ولعبت كتامة في كل ذلك دورا أساسيا حيث كانت السند الأقوى للفاطميين، ومنذ ذلك العهد صار الحكم في المغرب العربي على البربر المسلمين طوال عدة قرون.

والمقاطعة القبائلية في الجزائر هي الموقع الأصلي لقبيلة كتامة التي ما زال سكان شرقيها يتكلمون لهجة

عربية، ومعلوم أن اللغة العربية دخلت مبكرا إلى تونس وسهول عناية حيث خلفت مباشرة اللغة البونيقية التي يجمعهما مصدر واحد في حين أنها لم تدخل الجزائر -في نظر ابن خلدون- إلا في القرنين الثامن والتاسع، وربما كان لكتامة أثر في تعريب الناحيتين الوسطى والغربية للمغرب الأوسط، وهذا الدور قامت به كتامة في تاريخ المغرب العربي بل وفي تاريخ الشرق الإسلامي لم يمتد من نصف قرن ولكنه كان بليغا تغلغل في الأعماق حيث أدى تأسيس الخلافة الفاطمية وانتقال الكتاميين أنفسهم إلى الكنانة.

أما صنهاجة فإنها قبيلة ترعرعت وامتدت فروعها في أقاليم شاسعة من المغرب العربي وهي تقطن ناحية «القبائل» من الجزائر والصحراء الغربية (حيث يسمون الزناجة ومنها الزنوج في بلاد السنغال) وشرقي الأطلس بين ممر تازة والصحراء وهم الذين ساندوا دولة المرابطين ولا تذكر صنهاجة إلا مقرونة بكتامة وينسب كلاهما على حمير -على ما يقال- وإذا كان اسم صنهاجة ق اندثر في «قبائل» الجزائر فإن البربرية قد اندثرت كذلك وخلفتها اللغة العربية إلا عند جماعة ضئيلة تسكن بين بليدة والمدية (كوتي ص 335).

وصنهاجة الجزائريون الذين استقروا بين المغرب الأوسط وافريقية ليسوا من القبائل الرحالة مثل بني عمهم المرابطين وقد خلف الفاطميين في المغرب أمير صنهاجة هو بلقين بن زيري بن مناد جزائر بني مزغنة ومليانة والمدية وقد أسس حماد بن بلقين (عام 398 هـ.) القلعة المعروفة بقلعة بني حماد وهي العاصمة الثانية لبني زيري الذين انتقل منهم الناصر بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن إلى بجاية وهي العاصمة الثالثة والأخيرة لصنهاجة وقد أكد كوتي أن المملكة الصنهاجة خضعت لتأثيرات الشرق حيث ابرز بيليي في حفرياته الطابع الشرقي الذي تتسم به الهندسة المعمارية (الطابع العراقي في أروقة قلعة بني حماد) (والطابع الفارسي في زخرفة الأواني).

أما المصامدة فهم سكان الأطلس الكبير الذين ساندوا دولة الموحدين ومنهم أيضا غمارة سكان الريف وقد اتضح الآن أن مجموع الجبال المغربية و القبائل الجزائرية كلها من البرانس الذين تعد منهم كذلك قبيلة أوربة وهي قبيلة كسيلة الشهير التي كانت تسكن غربي الاوراس حسب «مسكارى» ويقطن عقبها اليوم في سهول وادي العبدي ووادي العرب ويظهر من كلام ابن خلدون أنهم كانوا منتشرين في التل ألوهراني وناحية تلمسان وحتى ممر تازة وقد انتقلوا بعد مقتل عقبة بن نافع وانهزام كسيلة إلى المغرب الأقصى حيث نزلوا مدينة وليلي المعروفة أيضا بقصر فرعون وهذا مظهر لوحدة الجزائر والمغرب الأقصى الجغرافية والتاريخية حيث أن شكلية الأراضي نفسها أقرت رابطة طبيعية بين إقليمي الاوراس والملوية الذين كان أمراء نوميديا (أي الجزائر مثل سيفاكس وماسسنيسة وجوكورطا متأرجحين بينهما.

ولكن أين الصحراء من كل هذا ؟ على أية شعبة ينتسب البربر الذين يتغلغلون في أعماق الصحراء المتاخمة للسودان أنهم بربر أشهرهم التوارك أو الطوارق الذين يعتبرهم ابن خلدون من لمطة ولمتونة، إلا أن علماء النسب يرون في هؤلاء فريقين اثنين احدهما اللمطيون واللمتونيون الذين أسسوا الدولة وهناك فريق آخر وهم ملثمو الشرق المعروفون بالهكار وهم هوارة الذين جاءوا من برقة وطرابلس ولعبوا دورا هاما في تونس والاوراس الجزائرية فهم أذن بتر من بني عمومة البرانس.

وقد يلاحظ أنني لم أميز في بحثي هذا بين العرب والبربر وقد فعلت ذلك عن قصد لان هذا الميز يكاد يكون غير موجود سواء اعتبرنا الأرومة العربية للبربر تبعا لرأي كثير من علماء النسب أو اعتبرنا الوحدة الطارئة أثر التوالد والامتزاج بين الجنسين أو مظاهر الوحدة الاجتماعية والفكرية أو غير ذلك فقد أكد مؤلف «عصور المغرب الغامضة (ص 221-225)» إن نتائج الفتح العربي بعد مرور اثني عشر قرنا تبعث على الدهشة لأن المغرب استعرب على نطاق واسع كما تغلغل الإسلام في أحشائه وشمل مجموع

أجزائه «وقلما أحرزت الفتوحات في تاريخ المعمور مثل هذا النجاح... لقد شعر ابن خلدون أن إمامه بالمغرب وحدة سلالية كبرى» ثم قال كوتي (ص 254) «إننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذبا بين الرحل البربر والعرب ذلك أن تشابه مناهج الحياة والعواطف الجوهرية أقوى من اختلاف اللغات» وقد اشرنا إلى ما قاله رونان وهو أن من دعائم الوطن الوحدة الروحية وأهمها وحدة الدين والعواطف فالمغرب الذي احتك نحو ألف من السنين بالحضارة القرطاجنية والبونيقية الشرقية (1)قد احتفظ في قرارة نفسه بإحساسات استعدادات فطرية نصف لا شعورية تتفتح للإسلام «(256) لهذا» فقد اندرج في بحبوحة الإسلام بالمغرب كل من له فكر مثقف وكل من يحس بالحاجة الملحة إلى لغة مكتوبة وإلى أدب «(256) والظاهرة الجديدة التي تتحدى تاريخ أوروبا كلها هي أن العربي الفاتح» عبر في ظفرة واحدة مساحات المغرب الشاسعة ناهجا المسلك الطبيعي الدائم بين الهضاب وممر تازة... وعبر مضيق جبل طارق متجها لفتح الأندلس ساحبا معه القبائل البربرية لهذا الفتح «ص (257) وأغرب من هذا الأندلس الذي هو من طينة سلالية غير طينة العرب ولا البربر علق هو أيضا بالعروبة ومظاهرها» وأهمل حتى الأدب اللاتيني- حسب المؤرخ دوزي- أعمق الإهمال واحتقره أبلغ الاحتقار بينما أحس بالأدب العربي يلهب سويداءه وشعر بمتعة لا نهائية خالصة» «كان الأندلسي مستعد للتنازل عن الأدب اللاتيني كله في مقابل نتف من الشعر العربي وهذا معيار لنفوذ العرب وسلاح قوي اكسب القلوب» (256) وما ثورة الخوارج التي امتدت من طرابلس إلى تونس إلى الجزائر إلى طنجة وسهول سبو ثم من قابس إلى فجيج إلى سجلماسة سوى طفرة نحو دعم وحدة المغرب بإيعاز دعاة العرب وتحت شعار الإسلام ولم يكن في هذا أي مظهر مقصود لما زعمه المستشرقون من وجود روح انفصالية بين العرب والبربر أو روح الثأر من البربر ضد العرب إذ لو كان ذلك حقيقيا لما اصطبغت الثورة بتلك الروح ولا بذلك الشعار غير أن هذه الثورة ما لبثت ككل الثروات في العالم أن تمخضت عن تيارات عنيفة حادت عن مجراها الأصلي فأشيع باسمها الدمار في افريقية ولكنها أدت مع ذلك إلى نتيجتها المحتومة وهي كما يقول كوتي (ص 273) «تركيز السيطرة العربية» في مجموع المغرب من افريقية إلى تاهرت إلى تلمان إلى مراكش ولعل من أهم رواسب طفرة الخوارج قيام مملكة المولى إدريس الذي احترمه حتى الاغالبة التونسيون-على قول النويري- لقرابته من الرسول وإذا كان من عادة أمراء البربر الاستناد إلى قبيلة مثل كسيلة مع أروبة والكاهنة مع جراوة والفاطميين مع كتامة والمرابطين مع صنهاجة والموحدين مع مصمودة وكومية فإن المولى إدريس قد احتضنته مجموعة من القبائل لا واحدة ذكر منها ابن خلدون زواغة وزناتة وسدراتة وغيانة ونفزة ومكناسة وغمارة وجميع القبائل الأخرى التي كانت تستوطن المغرب مثل اوربة ومطغرة (التي ساندت ميسرة من قبل) ومغيلة الجزائري. هذا علاوة على بني يفرن ومغراوة أي مجموعة الكتلة الزناتية من فاس إلى التليف الجزائري ولم يكن مع المولى إدريس سوى يضع مآت عن العرب اخترق بهم تامسنة إلى تادلة إلى الأطلس الكبير بينما اتجه الاغالبة إلى نشر الإسلام وحضارته في صقلية وهذه هي المرة الأولى التي تطأ فيها أقدام فاتح أجنبي تراب هذه الناحية من جنوب المغرب«لأن الإمبراطورية الرومانية لم تستطع قط (289) «المساس بهذه الكتلة البربرية الضخمة في المغرب الجنوبي

ويحق للمؤرخ كوتي القول بان تاريخ المغرب الأقصى يبتدئ من هذه الفترة التي انفتح بعدها المجال واسعا للمرابطين والموحدين نحو الشمال والشرق.

وقد عاد المغرب الأقصى في عهد المرابطين-كما يقول الأستاذ «طيراس» في تاريخه (ج 1 ص 257) » كما كان مغربا مزدهرا تحتف به الطمأنينة والسلام غنيا بموارده الطبيعية ورجاله الشجعان كما ازدهرت

-في عهدهم وبفضلهم في الأندلس حضارة الإسلام (ج 1 ص 259)
وقد أمكن لعبد المومن بفضل الفطرة الإسلامية وعزيمته القوية أن يوحد مصامدة الأطلس (ج 1 ص 273) وأن يؤسس مملكة مترامية الأطراف تمتد من قشتالة بالأندلس إلى الجزائر (ج 1 ص 238) وعبد المومن هذا هو الذي وحد المغرب الإسلامي للمرة الأولى في التاريخ تحت سلطة سياسية مشتركة امتدت من قشتالة على طرابلس (ج 1 ص 314).
وهكذا قامت للمرة الأولى في التاريخ-حسب المؤرخ كويل- دولة موحدة في مجموع المغرب العربي (سوردون-الكتاب المذكور ص 28) ولكن في هذا العهد (القرن الخامس الهجري) انصبت على المغرب موجة من العرب الهلاليين والسلميين وكانت العربية إذ ذلك هي اللغة الوحيدة المنظمة بالمغرب بالمعنى العادي للفظة لغة أي جهاز كامل الأجزاء بمفرداته ونحوه وكتابته وأدبه «بينما ظلت اللهجات البربرية اللغة الشعبية خارج الحواضر (عصور المغرب الغامضة ص 386) غير أن العرب الجدد أشاعوا اللغة العربية في شكلها الدارج حينما حلوا أي في البادية نفسها وبذلك «تغلغلت العربية في تونس وحواشي الاوراس والهدنة وهضاب إقليم وهران وسهوله وتسربت من ممر تازة إلى سهول المحيط الأطلسي أي في مجموع البلاد التي تسودها السلالة الزناتية ومعنى هذا أن العامل اللغوي أنضاف على العامل الجنسي لترصيص الوحدة بين هذه الأقطار من المغرب العربي على أن عرب معقل بلغوا مجموع الصحراء المغربية ولم يزد عددهم إذ ذاك على المائتين ومع ذلك تمكنوا من تعريب جزء غير يسير من صحراء المغرب ومنها شنجيط على أن أفواج بني هلال وبني سليم التي اخترقت إلفين من الكيلومترات لقطع المسافة الفاصلة بين صعيد مصر وتونس وكلها صحراء ما كانت تتعدى مائتي ألف نسمة على اكبر تقدير وإذا صدقنا الأستاذ كوتي القائل بان سكان مغرب القرن الخامس كانوا أوفر منهم اليوم أمكننا أن نقدر النسبة الضئيلة التي تمثلها هذه الهجرة العربية التي استطاعت مع ذلك أن تترعرع في شخص الأعراب الذين ساهموا في رفع نسبة التوالد بين الجنسين وامتزاج السلالتين ذلك أن هؤلاء الأعراب ما لبثوا أن عمروا كما ويقول كوتــي (405) مجموع الصحراء الشمالية من سفوح الأطلس إلى بحر الظلمات» ثم بعد ذلك سهول أزغار وتامسنا وتادلة ودكالة ومما يدل على تسرب العربية عن طريقهم إلى الصحراء أن «بعض التصانيف النحوية التي اندثرت في المغرب توجد الآن في الصحراء» (405).
وفي الجزائر نفسها شاهد ابن خلدون انتشار هؤلاء الأعراب الذين ما لبثوا أن اندرجوا في سلك قبائل زناتة الأصلية) بل كان لوجودهم بين ظهراني البربر تأثير قوي أدى بالكثير إلى تبني اللغة العربية كما وقع في افريقية حيث اعتنقت هوارة ما للهلاليين والسلميين من أعراف وأساليب في الحياة واللباس وغير ذلك بل تركت البربرية حتى أصبحت نسيا منسيا واتخذت مكانها لغة الضاد وقد انتشرت بنو زغبة وهم من العرب في المغرب الأوسط حيث سكنوا الحواضر والبوادي واندمجوا في زناتة ولاحظ ابن خلدون أن العرب أصبحوا يستوطنون في عصره مجموع نواحي بجاية وقسنطينة التي كانت موطن زواوة وكتامة وعجبة وهوارة اللهم إلا بعض الجبال المنيعة.
ثم جاءت الهجرة الأندلسية بعد ذلك فانتشرت اللغة العربية والحضارة الإسلامية في مجموع المغرب مع قلول الأندلسيين التي استقرت بالحواضر الكبرى مثل تونس ووهران وتطوان والرباط وفاس وحتى في بعض النواحي الجبلية مثل فازاز بالأطلس الأوسط وقد تغلغلت الروح العربية في نفوس البربر إلى حد أن الرحل العرب بدون استثناء-كما يقول كوتي (ص 410) أصبحوا يرفضون باستنكار فكرة الانتساب إلى أرومة بربرية فهم يرون في هذا الاحتمال سببا لهم وضربا من المحال وهم لا يكتفون باتخاذ العربية لغة

لهم فحسب بل يؤكدون أنهم عرب وانه لا تجري في عروقهم نقطة من الدم ليست بعربية نجد العرب اليوم مستقرين في المواطن التي كانت تعمرها زناتة في العصور الوسطى» فهذا الإشعاع الخالد الذي تمخض عنه الفتح الإسلامي واستباب الروح العربية منذ أزيد من ألف سنة يتناقض مع ذلك الانمحاء الكلي الذي منيت به الحضارة الروماني في المغرب العربي فقد لاحظ كثير من المؤرخين الغربية ومن بينهم سوردون (كتابه المذكور ص 41) «إن خمسة قرون ونصف قرن من المدنية الرومانية تبخرت في المغرب في ظرف قرنين اثنين ونصف قرن من فتح قرطا جنة على يد جنسيريك عام 439 م إلى أن فتح عقبة بن نافع «مدينة طنجة عام 682 م وبعد هذا التاريخ لم يبق فوق تراب المغرب أي تراث روماني غير الأنقاض هذا في حين أن حضارة البوتيك ظلت متأصلة في المغرب العربي حيث امتد نفوذها إلى القرن الخامس أي طوال الاحتلال الروماني«محققة بذلك فترة انتقال سهلة إلى الفتح العربي» (سوردون ص 31).

ولكن لماذا نجحت حضارة اليونيك حيث أخفقت مدنية الرومان ؟

يظهر أن وجود القرطاجنيين في المغرب يرجع إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقد أسست قرطاجنة عام 813 قبل الميلاد ولكن مدينة«اوتيك» التي أسست بالقرب منها أقدم وكذلك المدينتان المعروفتان بـ «هيبو» وهما بنزرت وعناية أو مدينة «ليبتيس ماكنة» أي طرابلس وثم هدم قرطاجنة عام 146 قبل المسيح بحيث يمكن القول بان النفوذ الفنيقي بالمغرب استمر عمليا ألف وكانت قرطاجنة هذه تمثل في غربي البحر الأبيض المتوسط الحضارة الشرقية التي هي أقدم حضارة في العالم وقد فضل الفينيقيون الاستبطان في السواحل وإقامة مدنهم على طولها حفظا لملاحتهم التجارية ومن تلك المدن قرطاجنة التي صارت عاصمة المغرب والتي دمرها الرومان في «الحرب البونيقية الثالثة» التي كانت معركة دمار تهدف لمنع الزعيم ماسينيسا من الاستيلاء عليها واتخاذها عاصمة لمملكة مغربية وطنية كبرى-تلك هي نظرية المؤرخ كزيل الذي أكد من جهة أخرى أن ماسينيسا هذا تمنى أن يكون بالنسبة للحضارة البونيقية ما كأنه لاسكندر المقدوني بالنسبة للحضارة الإغريقية » لاسيما وان هذا الامتزاج والتدخل كانا قد قطعا أشواطا في المغرب لأنهما تهيئا منذ قرون (كرتي ص 102).

ويرى كزيل أن قرطاجنة لم تبذل قط جهودا منظمة لإدماج المغرب ولم تستعمر البادية المغربية مثل روما وقد أسست نحو العشرين مدينة في الساحل بين طرابلس وتونس وامتزج الدم القرطاجني بالدم البربري فكانت لحمة أولى بين الشرق العربي الممثل في القرطاجنيين وبين المغرب المشخص في البرابرة وكانت لغة البونيك (التي تقرب من إلزامية أهل الشام) اللغة الرسمية عند أمراء نومبديا القوميين ولكن النفوذ البونيقي تجاوز الحدود التي كانت تشرف عليها قرطاجنة حيث وقع العثور على كتابات بونيقية في تونس وشرقي الجزائر وأكد سان-أوكستان الذي ولد في منتصف القرن الرابع الميلادي) أن اللغة البونيقية كانت إنها كانت دارجة في القرن السادس والمسافة Procope «منتشرة في البادية في عهده وأكد «بروكوب قصيرة بين هذا العهد والفتح الإسلامي لهذا يقول كزيل-أن في وسعنا أن نفرض أن البربر تبنوا لغة الإسلام لأنهم تعلموها بدون مشقة لمعرفتهم للبونيقية التي لا تختلف عنها كثيرا (تاريخ إفريقيا الشمالية القديم ج 4 ص 498) وقد استند كزبل نفسه إلى وثائق قديمة أشار إليها في كتابه واستنتج منها كوتي (عصور المغرب الغامضة ص 105) تسلسل تاريخ المغرب «تسلسلا عميقا» وقد وصف لنا بروكوب المذكور كيف هاجر العرب الناطقون باللسان البونيقي على المغرب بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام وكانت فينيقيا تمتد غذ ذاك من صيدون (وهي صيدا الحالية) إلى مصر وعندما اكتسحها العبريون هاجر الفنيقيون من وطنهم إلى بلاد الكنانة التي كانت في حدود بلادهم ومنها إلى المغرب حيث انتشروا إلى «أساطين هرقل»

(مضيق جبل طارق) ولهذه النظرية صلة بما قاله المؤرخون العرب في انتساب كتامة وصنهاجة إلى حمير ومعلوم أن الحميريين أقطاب الملاحة التجارية بين الهند وشرقي حوض المتوسط هم مثل الفنيقيين بالنسبة لهذا الحوض وكان بين البربري-في نظر ابن خلدون- قبائل حميرية ومضرية وقبطية وكنعانية وقرشية تجمعت في الشام وبها غزا افريقش الحميري المغرب.

ومهما تكن قيمة هذه النظرية فالواقع أن القرطاجنيين مشارقة وان لغتهم وحضارتهم الشرقيتين ظلتا-كما يقول كزيل- تحت الرماد طوال عهد الرومان والو ندال والبزنطيين إلى أن جاء الإسلام فوجد في«قرطاجنة جرنومة مشرقية لم يتدثر أثرها مستعدة للفتح والازدهار» واستمرار البونيقية في المغرب كانت له في نظر كزبل ذيول أخرى منها الديني (عبادة بعل مثل العرب) واستعمال الهلال واليد «الأصابع الخمسة» للاتقاء من العين والمحافظة الشديدة والتمسك بالدين.

ويستمر كزيل في الاستنتاج فيلاحظ كمظاهر للطابع الشرقي في المغرب استعمال القرطاجنيين للقميص الطويل بدون حزام وللشاشية والبرنس مع حلق الشعر أو تقصيره وإرسال أللحي وصبغها واستعمال الحناء والكحل والختان والسجود في العبادة (مما كان يدهش الإغريق والرومان) وتحريم لحم الخنزير وما هو أعظم من ذلك وهو وحدة الفكر الذي يختلف هنا عن فكر الغربيين (كوتي ص 125).

والذي يؤكد أيضا من الوجهة التاريخية وحدة القرطاجنيين والبربر أو وحدة الشرق والمغرب أن القطرين اللذين فتحهما المسلمون واستوطنوهما خارج إفريقيا في غرب حوض المتوسط هما الأندلس وصقلية وهما وحدهما اللذين استوطنهما الفنيقيون والقرطاجنيون قبل الإسلام «وعلى كل فإن وجود هذه الصلة بين قرطاجنة والإسلام» قد اندرج في سجل التاريخ وان سكان قسط شاسع من المغرب يتكلمون لغة سامية ق(ريبة من العربية ويلبسون ويتعممون ويفكرون ويحسون على طريق المشارقة منذ ما يقرب من ثلاثة آلف من السنين (كوتي 130-132).

وننساق من هذا إلى الحديث عن الأعراف والعوائد الاجتماعية في المغرب، فما نسميه بالعرف لا يمثل العرف دائما، لأن العادة المحكمة تكون تارة عرفا وتارة شرعا، والشرع كما يقول سوردون (ص 281) هو العرف العام أي المادة التي يستقي منا العرف في حين أن العرف في نطاقه الحقيقي ليس سوى ذلك الجزء الجنائي أو المدني من العادات، وهو عبارة عن الاتفاقات المبرمة بين الجماعات لتحديد بعض نقط العادة أو تعديلها في خصوص العوائد المتعلقة بالسواقي أو المخازن المسماة «بأجدير»(2).

وشكلية الجماعة عند الشلوح شبيهة بالتي توجد عند أما زيغ (الدشر-الدوار- مجلس الأعيان- أجدير الخ) وتلاحظ نفس الوحدة في الهيكل العام للقانون ألعومي، ولا بدع في ذلك حيث أن القبيلة التي هي النواة الجهوية للجماعة تتسم بنفس المظاهر الجماعة هو المكلف هنا وهناك بتطبيق العرف العام الذي هو الشرع وكذلك العرف الجنائي الخاص.

على أن الفقه المالكي منتشر في نصف المغرب العربي تقريبا (سوردون ص 473) وحتى في النواحي العرفية يلجأ الناس إلى الطلبة أو إلى الحكام يطلقون عليهم اسم قضاء أو مفتين ويختارونهم بالاقتراع لمدة مؤقتة أو بصورة دائمة، ويؤكد سوردون «أنه لم يقع قط أي تصادم بين الشرع والعرف» في المغرب (ص342)-ولنضرب مثلا بمنطقة الاوراس البربرية» فإن الفقه المالكي مطبق فيها، ولكن ذلك لم يمنع عرفا يستمد مقوماته الخاصة من وسط شبيه بسوس والأطلس الأوسط (ص 390) والأعراف متشابهة في افريقية (تونس) وبلاد القبائل الجزائرية والأطلس الأوسط بينما نرى التقارب محسوسا بين الأعراف في وسط المغرب الأدنى وجنوبه والاوراس (ص 442) بحيث تلحظ وحدة موصولة بين كثير من أجزاء

المغرب العربي لأن الجوهر واحد «فمن أجدير إلى قابس على الجزائر إلى بوذنيب إلى ابن صالح في الصحراء توجد لحمة واحدة في الهيكل العام الذي هو إفريقيا الشمالية» (ص 473).

ولعل من أبرز مظاهر وحدة المغرب العربي المظهر الجغرافي الذي تمخضت عنه كثير من المظاهر وبالأخص الحاجيات الاجتماعية والوحدة الاقتصادية ذلك أن أقطار إفريقيا الشمالية تتجلى كجزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق إلى الغرب في المسافة ينيف طولها على 1.800 كيلومتر وعرضها على 400 كيلومتر ويحف بها البحر من ثلاث جهات، في حين تتغلغل جنوبا في فيافي الصحراء، وإذا استثنينا هذه الصحراء الشاسعة التي هي امتداد طبيعي للمغرب العربي وحدنا أن مسافة إفريقيا الشمالية تبلغ 800.000 ك. م.

ويمتد الأطلسان الأوسط والأكبر نحو الشمال الشرقي عبر المغرب العربي بواسطة الأطلس التلي بينما يتعرج الأطلس الأكبر شرقا إلى جبال «القصور» ثم يستطيل «أطلسا صحراويا» نحو الشمال الشرقي في سلسلة سامقة تتخللها ممرات واسعة وفي تونس يلتحق الأطلسان الواحد بالآخر ثم يمتزجان.

ومن الأطلس الكبير على تونس يحف الأطلسان بسلسة من الهضاب الكبرى يتراوح ارتفاعها 800 و 1.000 كيلومتر.

وتتسم الشواطئ أيضا بنفس المظهر : ضفاف واطئة في المحيط الأطلسي دون أي تنوء صخري وعلى ضفاف المتوسط شواطئ تتخللها فرض ضيقة متفتحة لرياح الشمال والشمال الشرقي.

أما المناخ فهو على وجه العموم حار معتدل مع أمطار شتوية وتمتد أمام نظرك على طول الشاطئ وفي السهول ومنحدرات الأطلس التلي والريف والأطلسين الأوسط والأكبر أدرج وأشجار مستديمة الأوراق صيفا وشتاء تتخللها الدفل والعناب والدوم ومآت النباتات العطرية وترتفع غابات الزيتون في السفوح إلى 800 م. بينما تكثر في النواحي الرطبة أشجار الصنوبر والعفصية والبلوط والخفاف (الذي لا يوجد إلا في الحوض الغربي المتوسط) وتتسامق أشجار الأرز في القنن العالية.

أما في الهضاب العليا والنواحي التي لا تنزل فيها الأمطار بكثير فغن قطعان الغنم تسرح تحت حراسة رعاة رحل بينما تغطي الحلفة بخضرتها القائمة مساحات شاسعة (إفريقيا الشمالية لم. كليز (Gleyze)

ولا توجد في أي مكان في الدنيا غير الأطلس واسبانيا، فالحلفة إذن من أكبر خواص المغرب العربي (إفريقيا البيضاء-كوتي ص 161) وهكذا يتجلى الأطلس المتسلسل من المغرب الأقصى إلى المغرب الأدنى قطعة واحدة يغمرها نفس الضياء ونفس الأشعة ونفس المناظر الطبيعية (إفريقيا البيضاء كوتي ص 153) ولكن في مجموع أقطار الأطلس وعلى طول 3.000 كيلومتر من أكاد ير إلى صفاقس لا تتوغل الحياة البدوية والحضرية أكثر من 150 كيلومتر في عمق الجبال (ص 155).

ومن ثورات إفريقيا الشمالية علاوة على الزيتون أشجار الفواكه واللوز والكرم والحوامض والمشمش.

وتتسم هذه الوحدة الجغرافية والاقتصادية بطابع خاص عميق بين المغرب الشرقي والجزائر حيث يمتد التل ألوهراني إلى الملوية الذي هو أعظم نهر في

إفريقيا الشمالية كما تتلاحق هضاب دبدو مع هضاب تلمسان وتتلاحق نفس الهضاب من الجزائر إلى قبل الصحراء «تندرارة» وفي هضاب الجزائر والمغرب الشرقي تكثر الحلفة وقطعان الغنم التي تباع في بركنت وتصدر على الخارج من وهران وتعتبر فجيج مركزا هاما في الأطلس الصحراوي المغربي الجزائري على أن سهول وهران نفسها إنما هي امتداد طبيعي لممر تازة أو العكس

وتوجد في المغرب العربي نفسي المعادن تقريبا (الفوسفاط والحديد والزنك والرصاص والنحاس، وان كان

المغرب الأقصى ينفرد بالمانغنيز والقصدير والكوبالط والموليبدين والأخص الفحم والبترول).
وخلاصة القول هي «أن إفريقيا الشمالية واحدة في جميع مظاهر حياتها الماضية والحاضرة» كما يقول الكولونيل يوطس في كتيبه عن إفريقيا الشمالية(ص 55) فهي «كتلة متراصة لا يمكن تجزئتها» والعوامل شتى«لهذا التماسك وتلك الوحدة» بين أجزاء جزيرة هائلة عاش سكانتها منطوين حول أنفسهم آلاف السنين في حين هيأت لهم الوضعية الجغرافية الخاصة أسباب التواصل فتيسرت في جميع العصور عوامل التبادل من أقصى المغرب إلى أقصاه بين عناصر تجمعها أرومة واحدة سلسلة من المسالك السهلة تمتد من تونس عبر ممر تبسة إلى هضاب وهران ومن ممر تازة إلى المحيط الأطلسي! هذه الطريق التي عبرها عقبة بن نافع منذ أزيد من ألف عام لتوطيد قدم العروبة والإسلام هي التي وصفها ويليام مارسي بأنها «الخط الأكبر للحياة في المغرب الإسلامي» وهذه الطريق تتخلل الأطلس الثلاثة لتضفي على المغرب العربي وحدة جغرافية خاصة تجعل هذا الجزء من القارة الإفريقية فريدا في بابه لاسيما إذا أضفنا إلى ذلك وحدة الطقس التي تنشر على الكل سربالها الدافئ المشع بنوره الأزرق اللماع.
والمغرب العربي يعتبر من الوجهة الاقتصادية قطرا فتيا فلاحيا في جوهره ينطوي على قابلية ذاتيو للتصنيع نظرا لوفرة المواد الخامة واليد العاملة ولا تزيد التطورات الحديثة هذه المغارب الثلاثة إلا تقاربا لأبلغ وامتن.
وهذه الوحدة الخاصة التي تجعل من المغرب العربي وصحرائه كتلة من جميع الوجوه لا تتنافى مع الوحدة العامة التي تربط المغرب بالعالم العربي والتي تتجلى مظاهرها في وحدة اللغة والحضارة والدين والعواطف وكذلك التاريخ.
فالقطر الليبي هو امتداد طبيعي للمغرب نحو الكنانة وباقي أقطار الشرق، تجمعه بالمغرب وحدة الجنس علاوة على وحدة التاريخ والحضارة ولكنه ينفصل عن المغرب جغرافيا واقتصاديا، لان الأطالس تمتد إلى تونس فقط ولان الصحراء تمتد في ليبيا إلى الشواطئ نفسها.
ولا يختلف وضع مصر عن ليبيا بالنسبة للمغرب إلا قليلا إذا اعتبرنا أن الأقباط ينتمون إلى نفس الفصيلة اللغوية التي ينتمي إليها البربر وان مصر كانت دائما معبرا بين الشرق والمغرب العربيين وصلة وصل حية بينهما.
فعن طريق مصر دخل إلى المغرب الفاتح العربي ثم تدفقت بعد خمسة قرون موجة العرب الهلاليين والمسلمين الذين تواردوا إلى الصعيد المصري من جزيرة العرب التي تصلها بالمغرب زيادة على هذه النفتة الجنسية التي كان لها أعمق الأثر في التاريخ-أسباب أخرى لا تقل عن الأسباب التي تربطها بباقي العالم العربي.
وبلاد الشام التي أنت مهد الخلافة الإسلامية في العصر الأموي والتي كانت حدودها السياسية والجغرافية والحضارية تتغلغل بين دجلة والفرات والأردن إلى صحراء فلسطين كانت أيضا مهد الفينيقيين الذين نشروا في جناحي العروبة الشرقي والمغربي نفس الحضارة بما فيها من أبسط المظاهر حتى الاقتصادية منها حيث «أن الفينيقيين هم الذين حملوا من الشام إلى المغرب للمرة الأولى الزيتون والتين والكرم والرمان (الكولونيل بوطس 82).
ومن هذا العرض الموجز تتجلى لنا في أعمق مظاهرها وأبهى مجاليها تلك الوحدة العريقة التي تجعل من المغرب العربي مجموعة متراصة ينتظر أن تقوم بدور هام في حوض البحر المتوسط خصوصا والعالم الحر عموما مع شقيقاتها العربيات.

(1)

امتد إشعاع اللغة البونيقية التي كانت تشتمل على نسبة من العربية من قرطا جنة إلى قابس ومن طنجة إلى بجاية ثم إلى بلاد الجريد والاوراس
(تاريخ المغرب- كوساك ص 31) مثال ذلك ما لوحظ في البونيقية من أن لفظ ملك لها نفس المعنى في اللغتين (سوردون المذكور ص 38)

(2)

أجدير عبارة عن مستودع لخزن ذخائر مجموعة من العائلات التي تملك الهرى وتسمى أهل الحصن أو أهل الأصل وهي تكتتب لشراء الأرض ثم تبنى عليها عمارة من ثلاث طبقات ويباشر تسيير هذه المستودعات بالارتكاز على فكرة اللوازم وهي واجبات الشركاء أو المصالح وهي العلائق بين هؤلاء الشركاء لا يخفى أن فكرة «المصالح المرسلة» في المذهب المالكي تجعل هذا النوع من العرف عادة محكمة ذات صبغة شرعية.